مَنْزِلةُ اللّحنِ عندَ ذَوِي الرِّياسَاتِ في العصرينِ الإسلاميّ والأمويّ دراسةٌ سوسيولسانيّة

*سالم خليل الأقطش**

ملخص

يتغيّا هذا البحثُ استجلاءَ موقفِ السّلفِ من ذوي الرّياساتِ – من لدن العصر الإسلاميّ إلى الأمويّ – من قضية الخطأ في اللغة الذي بات يهدّد سلامة اللغة العربية نتيجة غياب السليقة اللغوية، وذلك لقناعتنا بوجود ترابطٍ لزوميّ بين السّلطة واللغة تكمن في كيفيّة احتواء التعدّد اللغوي الحادث نتيجة التقاء الشعوب وتداخل الألسنة، والإبقاء على النموذج اللغوي الأصيل الذي يمثّل الهويّة اللغوية، وذلك باستخلاص الآثارات اللغوية التي تمّ رصدها في المرويّات المنثورة في مظانّ الكتب والتراجم والمجالس والاخباريّات التي تُعنى بقضية السّلامة والتنقية اللغوية، وقراءة المشكل اللغوي الذي تم رصده، وتحليله، للوقوف على القيمة العلميّة المستفادة منه، والتعرف إلى منهجية السّلف من ذوي الرياسات في الرقابة والغيرة على اللغة العربية، وبناء موقفٍ ثابتٍ قارّ في الذهن نصدر منه في تشكيل طوق نجاة للسان العربيّ الحديث الذي بات غارقًا في تيه اللّحون لقاء الامتزاج والتلاقح بين اللغات في ظل غياب الرّقيب اللغوي، فكان الرّجوع إلى الخلفِ محاولةً لفهم ما ترسّم لديهم من الثقافة والانتماء اللغوي في مسألة الرّقابة اللغوية للحفاظ على اللغة العربية المكتوبة والمنطوقة سليمة خالية من أدران اللّحون، واقتفاء أثر السّلفِ في تعظيم أمر الخطأ في اللغة، وعدم التصالح معه بغية تصحيح المسار وإقالة العثار.

الكلمات الدالة: اللّحن، ذوي الرّياسات، التّصحيح اللغوي، العصر الإسلاميّ، العصر الأمويّ.

المقدمة

يمثلُ التأليف في اللحنِ اتجاها مستقلا يُعنى بالحفاظ على سلامة اللغة العربية من أدران اللحن التي علقت باللغة العربيّة بسبب اجتماع عوامل عدّة تمثلت في امتزاج العنصر العربي السليقي بغيره من الأمم والشعوب غير العربية، مما أدى إلى فقدان السليقة والجِبلّة اللغويّة الأولى التي فُطِر العربيُّ عليها، وكان يفخر بها على النّحوي بقوله:

ولَسْتُ بنَحْوِيٍّ يَلُوكُ لسانَه ولكِنْ سَلِيقِيٌّ أَقُولُ فأعربُ

ويبدو هنا الفرقُ واضحاً بين الأعرابي والنّحوي، وفي ذلك يقول الدكتور حسن الملخ:" ذلك أن الفرق بين الأعرابي والنحوي أنّ الأعرابي يتكلم وفق الطبع والسليقة بعيداً عن التفكير بالقاعدة النحوية أو الخطأ والصّواب في اللغة، على حين يسبق التفكير النحوي المعياري كلام النّحاة؛ لأنّه يعلم أنّ عمله ضبط المباني اللغوية..."(الملخ، 2002، ص25).

وفي هذا التحوّل من الملكة اللسانيّة إلى التّقعيد النحويّ يقول الزّبيدي:" ولم تزل العرب العاربة في جاهليتها وصدر من إسلامها تنزعُ في نطقها بالسجيّة، وتتكلم على السّليقيّة، حتى فُتحت المدائن، ومُصّرت الأمصار، ودُوّنت الدواوين، فاختلط العربي بالنبطي، والنّقي الحجازيّ بالفارسيّ، ودخل الدين أخلاط الأمم، وسواقط البلدان، فوقع الخلل في الكلام، وبدأ اللحن على ألسنة العوام"(الزبيدي،2000،ص59).

فأدّى ذلك إلى فشوّ اللحن في المفردات والصيغ والتراكيب، واتسعت رقعته حتى طالت نحيزة العرب الأقحاح، فلم يسلم منه البلغاءُ ولا أهل اللغة، الأمر الذي أُحتِيج معه إلى تصحيح المسار وإقالة العِثار من الوباء الذي أخذ ينمو على جسد اللغة، لذا فقد عقد الجاحظ بابا في كتابه البيان والتبيين وسمه بـ (من اللحّانين البلغاء) ذكر منهم عبد الله القسري، وخالدا بن صفوان الأهتمي، وعيسى بن المدوّر، وقد قوي هذا الاتجاه زمن الأمويّين الذين دأبوا على جمع اللغة، واستقراء شواهدها، وتقعيد قواعدها، واستكراه لحونها واستنكارها، وما وضعُ أبواب النحو، ووضع النقطين(الإعراب والإعجام) إلا دليلٌ على حركات الإصلاح التي التجأ إليها العرب نتيجة الملاحظة والمعاينة التي رصدوها من ذيوعٍ للحن وانتشار له على ألسنة النّاس إبّانئذٍ، مما أنذر بخطر كبير يتهدد

* قسم اللغة العربية والدّراسات الإسلامية، جامعة العين، الإمارات العربية المتحدة. تاريخ استلام البحث 2018/12/18، وتاريخ قبوله 2019/12/24.

©2020 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

اللغة ويدهده ثوابتها.

وإنّ أكثر ما دفعني إلى الخوض في غمار هذا الموضوع الشائك، والضرب في هذا التيه الواسع المترامي، تلك المفارقة الكبيرة التي يدركها المتخصصون في اللغة العربية بين ما كان – قديماً – من تعظيمٍ لأمر الخطأ في اللغة العربية، وعدم التسليم به والانقياد له، وما هو كائن – حاضراً – من تسمّحٍ وتجوّزٍ وتغافلٍ وتصالحٍ مع اللحون الحادثة في اللغة المنطوقة والمكتوبة، الأدبية العليا والمتخيّرة المصطفاة، ففي استحضار مواقفِ السّلف وذودهم عن حياض اللغة – الذي بات مستباحاً– ما يدفع الخلف إلى إضفاء مِسْحةٍ من القُدسيّة والحُرمة على أداء اللغة فصيحة سليمة خالية من الأخطاء على اختلاف مجالاتها، وكذلك بعث لسدنة العربيّة والقائمين على شؤونها من ذوي السلطان والنفوذ في العصر الرّاهن والشّادين فيها لمحاكاة ذوي الرّياسات قديماً في الوقوف على الأخطاء ومحاولة درئها بالصواب حفاظاً على النموذج اللغوي السّليم، وإشاعة للصّواب المهجور، واستكباراً للخطأ، لذا فقد رام هذا البحث إظهارَ الحرص اللغوي عند القدماء من ذوي الرّياسات في زمنٍ كان اللحنُ يوجب الاستغفار، ويؤخّر صاحبه عن الإمامة" (الرشيد، 2002، ص15).

ويرنو هذا البحث إلى استشراف أفق الانحرافات اللغويّة بجميع فروعها في سياقاتها المجتمعية، وتعرّف أنماط الاستخدام اللغوي في إطار تعدّد وظائف اللغة، مع ربط ذلك بالفئات الاجتماعية والمواقف، وبحث العلاقة بين الاستعمال اللغوي والتّصنيف الاجتماعي؛ فالاهتمام المعرفي بعلم اللغة الاجتماعي يقوم على أن بناءَ المجتمع والسّلوك الاجتماعي يوجّهان النظامَ اللغوي واستخداماته.

ولقد بات مصطلحُ (السوسيولسانيات) أو ما يُعرف بـ (علم اللغة الاجتماعي) من المصطلحات الأكثر تداولاً في الأدبيات اللسانية، كونه فرعاً من فروع علم اللغة العام، وينتمي إلى القسم التطبيقي منه، ويُعنى بدراسة اللغة وعلائقها بالمجتمع، فاللغة تشكّلت في أحضان المجتمع يوم أحسّ النّاس بالحاجة إلى التفاهم في ما بينهم (فندريس، 1950، ص35)؛ إذ يهتم هذا العلم بدراسة اللغة في سياستها الاجتماعية، ويفحص الدّور الذي تلعبه في المجتمع، وطرق تأثر اللغة بالتدريس والطبقة الاجتماعية والجنس والعرق والمحيط الجغرافي، كما يدرس بطريقة نسقية ومنتظمة كيفية تبادل التأثير بين المجتمع واللغة (P65,1994,Sadidi).

ويرى جون ديبوا (1920– 2015م) في (معجم اللسانيات) أنّ اللغة هي ذلك الجزء من اللسانيات التي يتقاطع ميدانها مع سوسيولوجية اللغة والجغرافية اللسانية، وعلم اللهجات، بحيث تكون مهمة السوسيولساني هي إبراز العلاقات الممكنة بين تنوع الظواهر اللسانية والاجتماعية، وضروب التأثير المتبادل بينها أخذا بعين الاعتبار حالة المتكلم، ووضعيته الاجتماعية، وأصله، ومهنته كمعطيات اجتماعية مرتبطة بإنجازاته اللغوية (Dubois,1973,P444).

فالسوسيولسانيات تسعى إلى اكتشاف القوانين والمعايير الاجتماعية التي تعمل داخل المجموعات اللغوية، على اعتبار أن اللغة تؤثر في المجتمع عن طريق الأعراف والتقاليد والتحوّلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، كما يؤثر المجتمع في اللغة من خلال التعدد اللغوي أو الثنائية أو الازدواجية اللغوية (الموسى، 2005، ص35).

وفي إطار الثورة العلمية الحديثة التي أسقطت الحواجز بين فروع علم اللغة كما يقول المسدّي، فإن السوسيولسانيات تتقاطع مع مجموعة العلوم كعلم الاجتماع، وعلم التاريخ، والجغرافيا، وفي إطار ما بات يُعرف بتداخل العلوم(المسدّي، ص45).

ولقد قرّ في الذهن واستحكم في العقل أن القرآن الكريم كان له أكبر الأثر في جمع شتيت لهجات العرب في عقد نظيم ولغة مصطفاة مستنخلة من لهجات شتّى، وقد أصبحت لغة القرآن هي النموذج العالي المتخيّر التي ينظم على شاكلتها الأدباء والخطباء، وأصبحوا يتفاخرون فيما بينهم بالابتعاد عن باقي اللهجات الأخرى، فبتنا نقرأ في أخبار المجالس عمّن يفخر أمام معاوية بن أبي سفيان بابتعاده عن فراتيّة العراق، وتيامنه عن كشكشة تميم، وتياسره عن كسكسة بكر، وأنه ليس فيهم عنعنة قضاعة ولا طمطمانيّة حمير. ومن نظم القرآن وسبكه وحبكه وألفاظه وتراكيبه توالدت العلوم اللغوية تباعًا على حسب الحاجة، وقد أضفت قدسيّته على العلوم اللغوية مسحة من القدسيّة حتى أضحى الهدف من دراسة النظام اللغوي وتشكّله هو فهم القرآن وصيغه وتراكيبه وألفاظه، فكانت القيمة التي تُرجّى من دراسة النحو ذي بدء قيمة دينية ومطلبا ملحا لفهم القرآن، فكان أن أُخذ النحو من النموذج اللغوي العالي للغة العربية والمتمثل في القرآن الكريم، والسليقة والفطرة اللغوية التي جُبل أهل اللغة عليها.

وقمينٌ بالذكر أن البحث النحويَّ لم يكن من الدِّراسات المبكرة التي خفّ لها العلماء سراعا؛ لأنهم انصرفوا بادئ الأمر إلى العلوم الشرعية، حتى ما وُجِد من إشارات وتأملات نحوية في القرن الهجري الأوّل فيمكن أن يُعزى إلى العامل الديني، كما أن البحث اللغوي كان أسبقَ إلى الوجود من البحث النحوي؛ فقد دأب اللغويون على جمع مادتهم من مظانها الأصيلة، وعمدوا إلى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تبويبها وترتيبها، وأما النحو فهو مرحلة تالية لجمع المادة اللغوية رامت فحص المادة المجموعة، وقد تم وضع النحو في الصدر الأوّل للإسلام(مختار،1971،ص61)، وتضافرت مجموعة من العوامل الدينية والاجتماعية واللغوية ساهمت في وضع النحو العربي؛ أما الباعث الديني فقد تمثل في أداء نصوص القرآن الكريم فصيحة سليمة وذلك بنقط الإعراب العمل الذي قام به أبو الأسود الدؤلي، ووضع النحو لم يكن بسبب حادثة فردية، وإنما ظهور أكثر من حادثة وواقعة لا ترجيح لبعضها على الآخر تمثلت في اللحن، كل هذه الحوادث مجتمعة دفعت سدنة اللغة إلى التفكير في وضع ضوابط للمبنى تحفظ اللسان من الحيد عنه والزلل فيه، وإن كان الدكتور علي أبو المكارم ينكر أن يكون اللحنُ سببًا في ظهور النحو، ويسوق ما يدعّم رأيه وهو أنّ اللحن كان معروفا زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – وأنه كان موجودا زمن الجاهليّة وأيام الخلفاء الراشدين(أبو المكارم، 2007،ص40).(الحلواني،1979،ص18)

ولعلّ المتتبعَ لظروفِ نشأة النحو يجد بأنّ أقدم نصٍ تطرّق إلى الحديث عن نشأة النحو العربي، وظروف نشأته، وأسباب نشأته هو نص محمد بن سلّام الجمحي(ت232هـ)، فقد ذكر أنّه:" كان لأهل البصرة في النحو قُدْمَةٌ، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية، وكان أول من أسّس العربية وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي... وإنما قال ذلك حين اضطرب كلام العرب، فغُلبت السليقة ولم تكن نحوية، فكان سُراة الناس يلحنون، ووجوه الناس، فوضع باب الفاعل والمفعول، والمضاف، وحروف الجر، والرفع والنصب والجزم"(الجمحي، 1997،جـ1،ص12).

وهذا النص يبين عن ثلاثة أشياء: واضع النحو وهو أبو الأسود الدؤلي، ومكان وضع النحو وهو البصرة، وسبب وضع النحو وهو فساد السليقة اللغوية، وشيوع اللحن.

ولقد استنخلنا مادة هذا البحث من الآثارات اللغوية التي دوّنها علماءُ السلف في كتبهم، فرُغنا إلى جمعِ شتيتِ المرويّات من مظانّها، ووضعها في عقد نظيمٍ، وارتضينا المنهج الوصفي التحليلي وذلك بتحليل المشكل التخطيئي فيها على اهتداء من الثقافة اللغوية وتاريخها.

على أنّ السعي في هذا البحث مركوز في مجالين:

الأوّل: رصد المجالس التي كانت تُعنى بالمواقف اللغوية في كتب الإخباريّات والمجالس والتراجم في العصرين الإسلامي والأموي.

الثاني: تحليل المشكل الذي وقع في هذه المجالس، مع إظهار القيمة العلمية المستفادة منها، وبيان دور الخلفاء والأمراء، والقادة، والقضاة من ذوي الرّياسات في مسألة الرقابة اللغوية مما ترسّم لديهم من المثاقفات اللغوية الواسعة.

وقد جاءت خطة البحث في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة، تضمنت المقدمة أهمية البحث، وهدفه، وخطته، وحدوده، ومنهجيته، وتناول المبحث الأول المعاني المحتملة لمصطلح اللحن، وبيّن المبحث الثاني أفول شمس السليقة وبزوغ فجر النحو، وقد عرض المبحث الثالث منزلة اللحن عند ذوي الرياسات في العصر الأموي، وأبرز المبحث الرابع منزلة اللحن عند ذوي الرياسات في العصر الإسلامي، وتلا ذلك خاتمة تضمنت أظهر النتائج التي خلص إليها البحث، وقائمة بالمصادر والمراجع.

المبحث الأول: المعاني المحتملة لمصطلح اللّحنِ

وإن لم يكن من وَكْدِ هذا البحث الخوض في تتبع تطوّر المعنى الدلالي لمصطلح اللحن؛ لأنّ مداداً كثيراً قد سُفك في هذا الموضوع، بيد أنه يكفينا من القلادة ما أحاط بالعنق.

لقد مرّت لفظة " اللحن" بمراحل عدّة حتى استوات على دلالتها المقصودة في هذا البحث، والمستصفاة من تعريفات متشعبة، وهي:" الخطأ في اللغة: صوتها، أو نحوها، أو صرفها، أومعاني مفرداتها "، وأن هذه الدلالة جاءت متأخرة بعض الشيء، وهذا ما يؤكده ابن فارس في قوله:" فأمّا اللحْنُ – بسكون الحاء– فإمالة الكلام عن جهته الفصيحة في العربية... وهذا عندنا من الكلام المولّد؛ لأنّ اللحن محدثٌ، لم يكن في العربية العاربة الذين تكلموا بطباعهم السليمة"(ابن فارس،جـ5، ص239).

فالمقصود من اللحن في الاصطلاح هو: مجانبة الصّواب في المنطوق والمكتوب لقصور في فهم النظام اللغوي أو الغفلة عنه، سواء كان في الأصوات، أو بتغيير في حركة الإعراب التي تؤدي بدورها إلى تغيير في المعنى، أو الإخلال في الصيغ الصرفية، أو التراكيب اللغوية.

وقبل الشروع في بيان المعاني التي يمكن أن تخرج إليها كلمة اللحن لا بدّ من الإشارة إلى أنّ ثمة جامعا مشتركا يربط بين هذه المعاني المتعددة، يتمثل في (إمالة الشيء عن جهته)، سواء أكان الميل عن الصواب إلى الخطأ أم الميل عن التصريح إلى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التلميح، أم الميل عن اللغة الفصحى إلى اللهجات الخاصة.

ومن المعاني التي تخرج إليها كلمة اللحن:

أوّلاً: ضربٌ من الأصوات المصوغة للتغنّي، وآية ذلك قول يزيد بن النعمان (القالي،1926، جـ1، ص4–6):

لقد تركتْ فؤادك مستجنّا مطوّقةٌ على فننٍ تغنّى

تميل بها وتركبُهُ بِلَحْنٍ إذا ما عنّ للمحزون أنّا

وقد ورد عن العرب قولهم في الأمثال: "ألحن من الجرادتين" وهما جاريتان اشتهرتا بحسن الصوت والغناء، وكذلك:" ألحن من قيْنتي يزيد" أي أحسن صوتا وغناء(الميداني، 2004، جـ2، ص255–256).

ثانياً: اللحن بمعنى التورية، كأن تريد شيئا فتعدل عن الإفصاح عنه أو ترمز إليه بقول آخر، وهذا ميل عن التعبير الصريح والتعريض بذكره، ويقال: لحنت لفلان لحنا؛ إذا قلت له قولا يفهمه عنك ويُخفى على غيره، ومن الشواهد التي تُساق على هذا المعنى قول القتّال الكلابي (مطر،1966، ص21):

ولقد لحنتُ لكم لكيما تفهموا ووحيتُ وحيًا ليس بالمرتاب

وبهذا المعنى فسّر جماعة قول مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري في جارية له:

منطقُ صائبٌ وتلحن أحيا نا، وخير الحديث ما كان لحنا

فالمراد باللحن هنا " الكناية عن الشيء، والتعريض بذكره، والعدول عن الافصاح عنه" (الجاحظ، 1423هـ، جـ1، ص46).

ثالثاً: اللحن بمعنى الخطأ في اللغة، ويبدو أن اللحن بهذا المعنى قد جاء متأخرا فكان مبتدؤه في بداية العصر الإسلامي وذاع في العصر الأموي والعباسي، وذلك لتأخر ظهور اللحن في كلام العرب، ولعلّ من أقدم الشواهد الشعرية التي تساق على هذا المعنى" الخطأ في اللغة" قول الحكم بن عبدل الأسدي (ت 104هـ) في هجاء حاجب عبد الملك بن بشر بن مروان والي البصرة ليحمل الأمير على إقالته (سليم، 2006،ص7):

ليت الأمير أطاعني فشفيته من كل من يُكفي القصيد ويلحَنُ

يكفي من الإكفاء: وهو المخالفة بين القوافي في الشعر.

وكذلك قول يحيى بن نوفل الحميري في هجاء خالد بن عبد الله القسْريّ والي العراق(105–120هـ) وهو:

وألحن النّاس كلّ الناس قاطبة وكان يُولع بالتشدّق في الخطب

والسمة المشتركة بين لفظي اللحن الواردين في الأبيات السالفة أنّهما جاءا في معرض الهجاء، فقد كان اللحن من الأمور المستقبحة في الرجال والنساء؛ لأنه قد يقلب المعنى ويفسد التأويل (الجاحظ، 1423هـ، جـ 1، ص219).

رابعاً: اللحن بمعنى اللهجة الخاصة، وآية ذلك قول الأعرابية الكلبيّة:

وقومٌ لهم لحنٌ سوى لحنِ قومنا وشكلٌ – وبيت الله – لسنا نشاكله

وكذلك قول شريك عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة في تفسير(العرم) في قوله تعالى: "فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ " قال: العرم: المَسْناةُ بلحن اليمن، أي بلغة اليمن(القالي، 1926، جـ1، ص5).

وقد جاء في قول عمر بن الخطاب: "أبيٌّ أقرؤنا، وإنّا لنرغب عن كثير من لحنه"؛ أي لهجته وقراءته، لأنّه كان يقرأ:" التابوه" بالهاء بدلا من التّابوت" بالتاء (اللسان، 1414هـ، جـ13، ص381.)

خامساً: اللحن بمعنى الفطنة والذكاء، ومن الشواهد التي تُساق على هذا المعنى قول النبي – صلى الله عليه وسلم–:" إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ".(مسلم،1991، جـ3،ص1337، حديث رقم 1713) فمعنى ألحن بحجته أي أفطن لها وأفصح، وعلى هذا المعنى جاء قول قعنب بن أم صاحب (يوهان،1980، 244):

غمستُ عنهم وما ظني مخافتهم وسوف يعرفهم ذو اللُّبِ واللّحنِ

سادساً: اللحن بمعنى القول ومعناه وفحواه ومذهبه، ودليل ذلك قوله تعالى: "وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ".

أي فيما يبدو من كلامهم الدّال على مقاصدهم التي يسرّونها، فالمتكلم يُفهم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المبحث الثاني: أفولُ شمسِ السّليقة وبزوغُ فجرِ النّحو

تأتي السليقةُ على وزنِ (فَعِيْلَة)، وقد كثُر وزن فعيلة في اللغة العربية، بيد أنّ المتتبعَ للمعاني المتنوعة لكلمة " السليقة" المبثوثة في المعاجم اللغويّة، يرى أنّه يمكن حصر معانيها في الدلالات الآتية، وهي:" الطبيعة، والخليقة، والسجيّة".

ويقول ابن منظور:" والسليقة: طبع الرّجل، والسليقيّ من الكلام ما لا يُتعاهدُه إعراب، وهو فصيح بليغ في السمع، عثور في النحو غيره. والسليقيّ من الكلام ما تكلّم به البدويُّ بطبعه ولغته، وإن كان غيره من الكلام آثر وأحسن. وفي حديث أبي الأسود: أنّه وضع النحو حين اضطرب كلام العرب، وغُلبت السليقة، أي اللغة التي يسترسل فيها المتكلم على سليقته، أي سجيّته وطبيعته من غير تعمّد إعراب ولا تجنّب لحن".(اللسان، مجلد10، ص160)

ويقول ابن جني:" فلانٌ يقرأ بالسليقة، أي: بالطبيعة "(ابن جني، جـ2، ص262.)

ويذهب إبراهيم أنيس إلى أنّ السليقة، هي:" أداءٌ لغويٌّ يتم في تطوّر وتدرّج ويسر، من غير عسر وتكلّف، ودون أن يشعر المتكلم بخصائص لغة الكلام، ولا فرق بين السّليقي وغيره إلا في درجة الإتقان". (أنيس،1966، ص33).

ونستطيع أن نعرّف السليقة اللغوية بمعناها الاصطلاحي: بأنّها الإحساس والتّشرّب اللغوي المتجذِّر في نفس الإنسان الذي يستطيع من خلاله إدراك استقامة اللغة من انحرافها، وصحتها من سقمها، ونضوجها واكتهالها من قصورها وخطلها، وهي الجبلّة الإبلاغيّة التي ليس فيها تعمّدُ إعرابٍ ولا تجنّب لحنٍ ولا احتذاء قاعدة، وهي الطبيعة والسجية والملكة التي يكتسبها الإنسان من أبناء جلدته، وتمكنه من الاتصال المباشر معهم، وعادة ما تكون السليقة اللغوية مقترنة بالقدرة الأدائية على الكلام دون معرفة علمية نظرية مسبقة بنظام لغوية معياري متواضع عليه ودون تلقين، وقد تجذّرت في نظامه العصبي، وآية ذلك ما بلغنا من القصائد الجاهلية والنصوص النثرية الناضجة مبنى ومعنا قبيل تقعيد النحو وعروض الخليل، فجاءتنا مكتملة دون معرفة سابقة بأنظمة اللغة وقوانينها التي وُضعت فيما بعد لغايات التّعليم.

وثمّة مفهومان متجذّران للسليقة اللغوية في أذهان اللغويين القدامى والمحدثين – في رأي رمضان عبد التواب – " فاللغويون العرب القدماء يربطون السليقة اللغوية بالجنس والوراثة، فهم لا يتصوّرون أن يسيطر على اللغة العربية غيرُ العربي، كما أنه لا يمكن أن يتقنها إتقان العربي لها، وهم بذلك كأنما قد تصوّروا أن هناك أمراً سحرياً وهو سرّ السليقة، فكأن الأمهات يُرضعن السليقة في ألبانهنّ، وكأن تلك السليقة تتصل اتصالاً وثيقاً برمالهم وآثارهم وأطلالهم ودمنهم" (عبد التواب، 1994، ص95).

وعلى عكس رأي القدماء فإنّ السليقة اللغوية في فكر اللغويين المحدثين: "لا تعدو أن تكون مرحلة من مراحل إتقان اللغة، عندها لا يكاد يشعر المتكلم بخصائص كلامه، من حيث الأصوات، وأبنية الألفاظ، وتراكيب الجمل، فهو يؤدي الكلام بصورة آلية، دون أن يكون له اختيار في هذه النواحي، بل تصدر منه دون تكلّف أو تعمّد، أي أن اكتساب اللغة يبدأ بالتقليد وكثرة المران، فلا وراثة في السليقة اللغوية "(عبد التواب،1994، ص96).

ولما تداخلت الأجناس وتخالطت النّاس، داخل السليقة شيء من اللوثة نتيجة تداخل الألسنة وتباين اللغات، فأخذ اللحن الذي هو بمعنى (الزّيغ عن الإعراب) بالظهور، ولم يكن منه شيء قبل الإسلام، وأنه بدأ بالظهور أيام النبي – صلى الله عليه وسلم – أي في العصر الإسلامي المبكّر، وكان طيرة على عهده، فقد ذُكر أنّ رجلا لحن في حضرة النبي– عليه الصلاة والسلام– فقال: "أرشدوا أخاكم فقد ضل"السيوطي،1998،جـ2،ص341).

وقد بدأ اللحن خفيفاً بادئ الأمر بيد أنه أخذ يطفح عند زيادة اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الداخلة في الدين الجديد، لذلك هبّ ذوو الغيرة على العربية إلى وضع ضوابط للكلام العربي تحكم استعماله، ووضع رسّ النحو الذي تقوم عليه العربية.(الرافعي،1911، جـ1، ص 201.) و(مطر، 1966، ص29).

و من أظهر الأسباب التي تقف وراء ظهور اللحن دخول غير العرب في الإسلام أفواجا، وإقبالهم عليه أرسالا، وفي هذا المعنى يقول الزبيدي:" ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل الناس فيه أفواجا، وأقبلوا إليه أرسالاً، واجتمعت الألسنة المتفرقة، واللغات المختلفة، ففشا الفساد في اللغة العربية"(الزبيدي،1973، ص11).

وهذا ما دفع يوهان فك إلى التساؤل عن بدايات استعمال لفظ اللحن بمعنى الخطأ في الكلام بقوله:" ولا يزال ينقصنا بعد كل دليل يبين متى تم نقل لفظ اللحن إلى معنى الخطأ في الكلام، وأغلب الظن أنه استعمل لأول مرة بهذا المعنى عندما تنبّه العرب بعد اختلاطهم بالأعاجم إلى فرق ما بين التعبير الصحيح والتعبير الملحون"(يوهان،1980،ص245).

ونرى أن أخطاء الأعاجم أكثر ما كانت تحدث في نطق أصوات اللغة العربية؛ فقد بدا واضحا في ما تناقلته بعض الكتب من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ألفاظ المستعربين الذين أبدلوا بعض أصوات العربية العسيرة على نطقهم ببعض الأصوات الموجودة في لغاتهم، كأن يبدلوا الحاء هاء كما جاء في قول مولى زياد لزياد: "أهدوا إلينا همار وهش" بدلاً من "حمار وحش"، والعين همزة كما في قول زياد النبطي لغلامه:" من لدن دأوتك"، والقاف كافا، ونوادرهم في ذلك متناقلة في الكتب،(الجاحظ،1998،جـ2،ص، 168،213)، والخطأ في نطق بعض الأصوات العربية لا يشكّل دافعا قويا ورغبة حقيقية عند العرب لوضع قوانين وقواعد تغلق الباب على اللحن فيها، بيد أننا نذهب إلى أن بداية اللحن كانت في الحركات الإعرابية، وهذا ربما وقع أولا من أبناء اللغة المعروفين بالإعراب والضبط، ويقوى في ظننا أن الخلل في الإعراب لدى العرب هو الذي أحوج إلى وضع النحو وتعلّم الإعراب، وذلك عند أفول شمس السليقة وبزوغ فجر الرطانة وأوطار الخطأ وأسقام الإعراب، فقد ذكر ابن جنّي أنّ:" تخلّل الإعراب– يعني تتابعه– من ضرب إلى ضرب يجري مجرى مناقلة الفرس، ولا يقوى على ذلك من الخيل إلا الناهض الرَّجيل دون الكودن الثقيل"(ابن جني،1971،جـ1،ص 416)، ويصدّق ما نذهب إليه أيضا قول أبي الطيب اللغوي:" واعلم أنّ أول ما اختلّ من كلام العرب فأحوج إلى التعلم الإعراب؛ لأن اللحن ظهر في كلام الموالي والمتعرّبين من زمن النبي – صلى الله عليه وسلم– " (اللغوي، 2009، ص19).

فكبُر على فصحائها ما آل إليه أمر اللغة وهم يرقبونها وهي في تحدّرٍ، فخفّوا سراعا إلى نصرتها ونجدتها من هذا الطارئ الدخيل الذي ران عليها جرّاء الامتزاج والتلاقح اللغوي الذي تشكل نتيجة التقاء الألسنة واجتماع الثقافات، وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن اللحن أول ما ظهر على ألسنة العرب أنفسهم، الأمر الذي دفع العلماء إلى وضع بعض الأبواب النحوية، فكانت ظاهرة اللحن هي التي دفعت إلى وضع بعض القواعد النحوية مما يجري استعماله بكثرة، وهذا ما حدا ببعض رواة الفترة الأولى من العهد الأموي إلى الحد من هذه الظاهرة بما اتفق لهم من تكليف أبي الأسود بوضع نقط الإعراب، وهذه هي البداية التي هيأت لقيام النحو.

وإذا كان الاختلاط بين العرب والأعاجم إبّان مجيء الإسلام هو السبب الرئيس الذي يقف وراء ظهور اللحن فإنّ الاختلاط بينهم كان موجودا وحاصلا قبيل مجيء الإسلام وفي العصر الجاهلي؛ " فقد كانت الجزيرة العربية مأوى للمهاجرين وطلّاب الكسب من الأمم الأخرى، كاليهود والفرس والأحباش والروم، ولم يكن هؤلاء يجيدون العربية، فضلا عن التكلم بها، حتى يسلم منطقهم من اللحن"(سليم، 1989ص45–46).

حتى إننا لا نستطيع أن ننزه العربي قبيل مجيء الإسلام عن اللحن والخطأ في اللغة العربية؛ لأن قواعد العربية لم تكن قد قننت عصرئذ، ولم يكن نحوها قد وضع، وقياسها لم يُستنبط، فعلى أي الوجوه ستتم محاكمتهم؟

ولعلّنا نستأنس برأي الدكتور حسن الملخ في الإجابة عن هذا التساؤل بقوله:" إنّ اختلاف اللغات العربية في العصر الجاهلي في بعض الظواهر النّحوية يدلّ على وجود مشكلة نحويّة على مستوى اللسان، أحسب أنّ العرب عالجتها بشكل عمليّ غير مقصود، وهو اللجوء إلى معايير اللغة المسيطرة عند الحاجة إلى التواصل مع القبائل، وهو العلاج الذي أبقى المشكلة النحويّة تحت السطح"(الملخ، 2002، ص59–60).

المبحث الثّالث: منزلةُ اللحنِ عند ذوي الرّياسات في العصر الإسلامي

أشرنا في ما سلف إلى أنّ مصطلح اللحن مرّ بمراحل عدّة حتى استوى على المعنى الذي أضحى يُعرف به اليوم، وهو:" الزّيغ عن الإعراب"، على أن اللحن بهذا المعنى لم يكن منه شيء قبل الإسلام، وقد بدأ بالظهور أيام النبي – صلى الله عليه وسلم – إذ كان طيرة على صاحبه، فقد حكى صاحب الخصائص أنّ النبي – عليه الصلاة والسلام – سمع رجلا يلحن في كلامه، فقال:" أرشدوا أخاكم فإنّه قد ضل" (ابن جني، الخصائص، جـ2، ص8).

ويُستدلّ بهذا الحديث النبوي على أوليّة اللحن، وأنه لم يكن معروفاً قبل الإسلام، ولو كان معروفا مستقرّ الأسباب قبلا لما جاءت صيغة الحديث بهذا المعنى؛ لأنّ الضلال خطأ كبير ويلزمه الإرشاد، ويرى الرافعي أن عبارة الحديث تكاد تنطق بأن ذلك اللحن كان أول لحن سمعه أفصح العرب(الرافعي،1911،جـ1،ص203).

وقد روى السيوطي أنّ النبي – صلى الله عليه وسلم – قال:" أنا من قريش ونشأتُ في بني سعد، فأنّى لي اللحن" (السيوطي، المزهر، جـ2، ص397).

وقد استدلّ كلٌّ من السيوطي وابن جنّي بأحاديث عن النبي – عليه الصلاة والسلام – في ذمّ اللحن والخطأ في الكلام، وتابعهم في نقل هذه الأحاديث من تناول أولية نشأة النحو العربي، وبدايات ظهور اللحن، ولكن بعد التحقّق والتثبت من صحة هذه الأحاديث تبين أنّها ضعيفة. وبيان ذلك أنّ ما ساقه ابن جني فيه زيادة، وهي:(يلحن في كلامه)، فلا نعلم في ما أخطأ الرجل،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ونرجّح ألا يكون قد لحن في التخاطب اليومي بل في قراءة القرآن، وما كان النبي يلحّن أحدا ويرميه بالضلال للحنةٍ في كلامه اليومي، كذلك ثمة زيادة في كلمة (ضلّ) التي لم ترد عند أصحاب الحديث، والصحيح ما أخرجه الحاكم عن أبي الدرداء– رضي الله عنه – قال: سمع النبي – صلى الله عليه وسلم – رجلا قرأ، فلحن، فقال:" أرشدوا أخاكم"(الحاكم، المستدرك، جـ2، ص440)، كذلك ضعّف الألباني هذا الحديث في السلسة الضعيفة (الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة، جـ2، ص315).

وأما ما رواه السيوطي من قول النبي – صلى الله عليه وسلم –:" أنا من قريش ونشأتُ في بني سعد، فأنّى لي اللحن " فقد قال العجلوني:" معناه صحيح ولكن لا أصل له كما قال ابن كثير وغيره من الحفاظ، وأورده أصحاب الغريب ولا يُعرف له إسناد، ورواه ابن سعد عن يحيى بن يزيد السعدي مرسلا بلفظ:"أنا أعربكم أنا من قريش، ولساني لسان سعد بن بكر"، ورواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري بلفظ:" أنا أعرب العرب، ولدت في بني سعد، فأنّى يأتيني اللحن". (العجلوني، كشف الخفاء، ص201).

وعلى الرّغم من ضعف الحديثين فإنّه يُستدلّ بهما في معظم من ألف في الدرس اللغوي، والذي عليه علماء الحديث أنّه يعمل بالحديث الضعيف في ما ليس فيه تحليل ولا تحريم، وهذان الحديثان من الأحاديث التي لا تضع حكما ولا ترفعه، وفي هذا الشأن يقول الدكتور حسن الملخ:" والحقيقة أنّ الأحاديث المسندة إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – في فضل الإعراب والحثّ على تجنّب اللحن لم تصحّ، فهي موضوعة أو منكرة أو ضعيفة، وهي مظهر من مظاهر التحيّز اللغوي"، ويرجّح الملخ أنّ:"الهدف من وضع هذه الأحاديث هو التشنيع على المتساهلين بمقاييس الصوّاب اللغوي الذين لا يتحرّجون في كسر قوانين اللغة في النحو والصّرف بربط إتقان الإعراب –بمعنى إيفائه حقّه النحوي والصرفي– بالثّواب الديني"(الملخ، 2002، ص63).

لذا فإنّنا نستدل بهما على أوليةّ اللحن الذي أخذ بالظهور زمن النبي– صلى الله عليه وسلم– الأمر الذي دفعه إلى التنبيه عليه لخروجه عن مقتضى الصواب، والنظام اللغوي الذي يقتضي وضع الكلام في موقعه الذي يقتضيه الإعراب، لذا سارع إلى دعوة أصحابه إلى ردّ صاحبهم إلى النظام اللغوي الصحيح، والتصدّي له في لحنه الذي ربما خدش الأسماع فأوجب التنبيه، وعندنا أن لحن هذا الرجل إنما كان في قراءة القرآن وليس في الكلام عامة، وهذا يدلنا أيضا على أن قضية اللحن أطلّت برأسها في العصر الإسلامي، ولم تكن مستساغة يسهل التصالح معها، ولم تكن الأذن قد اعتادت عليها، فجاءت عبارة الحديث فيها شيء من التوجيه بضرورة الإصلاح اللغوي وعدم ترك الأمر على ما هو عليه إقرارا باللحن، ولكن يبدو أن الأمر قد تغير فيما بعد، فبات اللحن من الموالي والأعاجم معروفا، وهذا ما نلمسه في الحديث الثاني للنبي – صلى الله عليه وسلم – إذ جاءت صيغته تدل على أن اللحن أضحى منتشراً معروفاً بين الناس وقتئذ، بيد أنّه مستبعد مذموم غير مقبول من قِبَل النبي عليه الصلاة والسلام.

وقد أقام النبي اتزانا حقيقيا في تأدية اللغة غير ملحونة ولا متقعرة، وبدا ذلك واضحا في قوله:" إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بألسنتها"(الهروي، 1998، جـ1، ص 118). فنفى التشدّق والتحذلق والتنطع في القول، وفي نفي هذه الأساليب ما يبقي للغة حياتها وحيادها وازدهارها، فلا هي ملحونة ولا متقعرة ولا جوفاء متكلفة.

وعن جابر أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "إن من أحبكم إلي، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارُون والمتشدّقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارين والمتُشدقين، فما المُتفيهقُون؟ قال: المتكبرون" (الترمذي، ص488، حديث رقم 2018).

فجميع الصّفات التي ذكرها النّبي – صلى الله عليه وسلم – تتعلق بالكلام وصفات المتكلمين؛ فالثرثارُ :هو كثيرُ الكلامِ تكلفا.والمُتشدقُ :المتطاولُ على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه؛ والمتفيهقُ أصلهُ من الفهق وهو الامتلاءُ، وهو الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسعُ فيه، ويغربُ به تكبراً وارتفاعاً، وإظهاراً للفضيلة على غيره.

وترك بعض الكلمات أحب إلى أبي بكر الصّدّيق –رضي الله عنه– (ت13ه) من وقوعه في مظنة الخطأ، فقد شدّد النكير على نفسه إن هو أخطأ، وذلك حين قال:" لأن أقرأ فأسقط أحبّ إليّ من أن أقرأ فألحن "(السيوطي، 1998، جـ2، ص 241).

وإذا مضينا بالزمن إلى خلافة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فإننا سنلحظ أن الرقابة اللغوية أخذت بالتزايد، وأنّه استشعر مشكلة الانحراف اللغوي الحادثة نتيجة ازدياد الاختلاط بين العرب المسلمين والفرس والأعاجم وغيرهم من الأمم الداخلة في الإسلام خصوصا في فترة الفتح الإسلامي للعراق، وخوفا على استشراء اللحن في أهل العربية وضياع هويّتهم اللغوية، فقد بادر بخطوات استباقية حفاظاً على اللغة العربية من الطارئ والدخيل، فحرّم على العرب أن يمتلكوا الضياع في الأقاليم المفتوحة، أو أن يتخذوها سكنا لهم، ولذا فقد أسكنهم في معسكرات من الخيام معزولة عن أهل البلدان، بيد أن الدهر أفسد ما دبّر عمر فاستحالت تلك المعسكرات بعد ذلك إلى مدنٍ يقطنها الفرس والعجم إلى جانب من فيها من العرب، فكانت البصرة معقلا يضم كثيرا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من الأمم الداخلة في الدين الجديد تحت لواء الإسلام أو للتجارة والصناعة والعمارة، من هنا أدى الامتزاج بين اللغات المختلفة إلى التلاقح اللغوي بين العربية وغيرها من لغات الأمم الذي أدى بدوره إلى التقارض اللغوي بين اللغات على مستوى المفردات والتراكيب والأصوات،(سليم، 1989،جـ1، ص10)، وهذا أدى إلى فساد الملكة اللغوية والسليقة التي تحصّلت بالممارسة اللغوية وعدم المخالطة، فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد، وقد أضحت ملكة العربي ممتزجة وهذا أبعدهم عن جبلّتهم اللغوية الأولى، فآذن بتسرب شيء من اللحن إلى نحيزة العربي، مما ألان جفوتهم، فزاغ اللسان وما درى.

وبلغ من أمر الحرص اللغوي زمن عمر إلى التقنيع بالسّوط زجرا للّاحن وثنيا له عن خطئه، أو التقريع للقوم على لحنهم، فقد ذكرت المصادر جملة من حوادث اللحن التي وقعت إبّان خلافة عمر، فمن الحوادث أنّ عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– كتب إلى أبي موسى الأشعري وقد قرأ في كتابه لحنا–:" قنّع كاتبك سوطا" (الصولي، 1994، ص133).

والإشارة التي نلتقطها في هذه الرواية أنّ اللحن لم يكن في الكلام المحكي والمسموع فقط – وهو الأكثر ذيوعا وانتشارا بين النّاس لعدم مقدرة بعض المتكلمين على الجمع بين الإعراب والمعنى – ولكنّ اللحن وقع هنا في الكلام المكتوب والمقروء، وهو دون شك أدهى وأمر، وذلك لمقدرة الكاتب على مراجعة الكلام المكتوب وتدقيقه وتصويبه، لذا تشكّل هذه الحادثة نقلة ما بين اللحن في المنطوق إلى اللحن في المكتوب، وهذا – ربما – ما دفع عمر إلى تغليظ العقوبة على الكاتب.

وقد مرّ عمر على قومٍ يُسيئون الرمي، فقرّعهم، فقالوا:" إنّا قومٌ متعلمين" فأعرض عنهم مغاضباً، وقال: والله لخطؤكم في لسانكم أشدّ علي من خطئكم في رميكم" وسمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول:" رحم الله امرأ أصلح من لسانه" (الحموي،1993،جـ1، ص17)

والصواب:(إنّا قومٌ متعلمون)، وهذه الحادثة تشي بالجهل التام بقواعد اللغة العربية التي تُتْبِعُ الصفة الموصوف، ولم يقع الخطأ منهم في الحركات الأصلية التي تحتاج إلى شيء من التنبّه اللغوي، بل وقع في الحركات الفرعية التي لا يقع فيها إلا جاهلٌ في أمر اللغة وقوانينها.

ووصل أمر اللحن إلى آي القرآن الكريم، وقد كثُر فيه، ومردّ ذلك إلى أن القرآن:" انطوى على أسرار من سياسة الكلام لا تتعلق بها إلا الطبيعة الكاملة، ولذا كان أكثر اللحن فيه بادئ بدء؛ لأن لسان كل عربي يركب منه قياس لغته، ويدرك أسراره بحسب ما تؤاتيه قوته" (الرافعي،1911، جـ1، ص 203).

ولم يكتفِ الخليفة عمر فقط بالرقابة اللغوية بل تجاوز ذلك إلى تصويب الخطأ، وإصدار قرار بأن لا يقرأ القرآن إلا عالمٌ باللغة، وآية ذلك أن أعرابيا قدم في خلافة عمر، وقال:" من يقرئني شيئا مما أنزل الله على محمد؟ فأقرأه رجل سورة التوبة بهذا اللحن:" وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ **وَرَسُولِهِ** "، وذلك بخفض كلمة (رسوله) والصواب ضمّها، فقال الأعرابي: إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه " فبلغت مقالة الأعرابي عمر، فدعاه، فقال الأعرابي: "يا أمير المؤمنين، إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني، فأقرأني هذا سورة براءة، فقال:" أن الله بريءٌ من المشركين ورسولِه "، فقلت: أوقد برئ الله تعالى من رسوله؟ إن يكن برئ من رسوله، فأنا أبرأ منه. فقال له عمر – رضي الله عنه –: ليس هكذا يا أعرابي، فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال:" أن الله بريءٌ من المشركين ورسولُهُ: " فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممن برئ الله ورسوله منه. فأمر عمر ألا يُقرئ القرآن إلا عالمٌ باللغة، وأمر أبا الأسود أن يضع النحو"(الأنباري، 1985، ص18–19).

وقد حاول أن يوجّه الناس إلى تعلّم اللغة العربية الصحيحة الخالية من اللحون ويحثهم على ذلك، فقد ورد عنه أن قال:" تعلموا العربية تحرزوا المروءة" (الأنباري،1987هـ،ص5).

وقد بلغ بهم الحذر والخوف من اللحن أنّهم كانوا يأخذون أولادهم بالإعراب أخذا شديدا، حتى أنه يروى عن ابن عمر أنه كان يضرب بنيه على اللحن تقويما لهم (الرافعي، 1911جـ1، ص203)

ومعلومٌ أنه كلما زاد اختلاط العرب بغيرهم من الأمم استفاض اللحن وطفا، ولمّا كثرت حوادث اللحن وبات الأمر ذاهبا إلى الفساد اللغوي الذي يقود إلى فساد في الدين– إذ كانت سلامة أحكامه موقوفة على حسن فهم المستبصر لنصوص القرآن الكريم والحديث الشريف– فكان في فشو اللحن بين الناس وفساد بعض الألسنة نظير المخالطة والمقابسة والمجالسة ما يشي بضياع هذا الفهم للدين، الخطر الذي أوجس منه أولو النُّهى والدين والرّياسة خيفة، فأخذوا يفكرون في مواجهة هذا الخطر الدّاهم، فتبددت قرائحهم عن وضع بعض الأصول النحوية التي يُعرف بها أصل الكلام، وفي الرواية التي نقلها السيوطي في تاريخ الخلفاء عن مجلس أبي الأسود الدؤلي مع علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وما كان في مجلسهما من وضع بعض أصول النحو، يورد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أبو الأسود ما نصه:" دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فرأيته مطرقا مفكرا، فقلت له: فيمَ تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إني سمعت ببلدكم هذا لَحْنًا، فأردت أن أصنع كتابًا في أصول العربية، فقلت: إن فعلت هذا أحييتنا، وبقيتْ فينا هذه اللغة، ثم أتيته بعد ثلاثة، فألقى إلي صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم: الكلمة: اسم، وفعل، وحرف، فالاسم: ما أنبأ عن المسمّى، والفعل: ما أنبأ عن حركة المسمّى، والحرف: ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل، ثم قال: تتبعه وزد فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر، ولا مضمر، قال أبو الأسود: فجمعت منه أشياء، وعرضتها عليه فكان من ذلك حروف النصب فذكرت منها: إن، وأن، وليت، ولعل، وكأن، لم أذكر لكنّ، فقال لي: لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها فقال: بل هي منها فزدها فيها" (السيوطي، 2004، ص139-140).

ففي هذه الرواية ما يبرهن على أن اللحن هو الشرارة الأولى التي انبعث منها أوار النحو، وعلى فرض عدم التسليم بصحة الرواية آنفة الذكر، فإن ما قام به أبو الأسود من نقط للمصحف (نقط الإعراب) هو أعْوَدُ على حفظ النصوص من حدود النحو، ولعله أعظم خدمة قدمت إلى العربية حتى زماننا.

وقد قيل إن النحو وغيره من العلوم التي وُضعت لذلك العهد هي علوم الموالي، فكان يرغب عنها الأشراف، ويُروى أن الشعبي مرّ بقوم من الموالي يتذاكرون النحو، فقال لهم: لئن أصلحتموه إنّكم لأوّل من أفسده (الرافعي، 1911جـ1، ص203).

المبحث الرابع: منزلة اللحن عند ذوي الرّياسات في العصر الأمويّ

استطاع بنو أميّة بفرعيهم السّفياني والمرواني بما أوتوا من الدهاء والحكمة والحلم أن يقبضوا على ناصية الحكم في الدولة العربية الإسلامية ما يقارب قرنا من الزّمان (41هـ – 132 هـ)، وكان جلُّ خلفاء بني أميّة نقّادًا، وعلى بصيرة نافذة بالشعر والنثر من مثل معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، ومسلمة والوليد، وسليمان، وهشام وغيرهم ممن سنأتي على ذكرهم في مقبل الصفحات، فكانوا ذوي إحساسٍ عميق ودقيق بجمال لغتهم، لذلك كانوا حذرين أشد الحذر من التجديدات التي باتت تطرأ على العربية نتيجة الاختلاطات بين العرب والأمم الأخرى، ولهذا اتخذوا موقفا صارما مما عُرف بـ (اللحن) في لغتهم، وبدأت تظهر في بيئاتهم ردود الفعل التي تسعى إلى تنقية العربية من الفساد اللغوي الذي يعتريها، وبرهن الأمويون على هذا الحرص اللغوي، وحماية مبادئ العربية، وإن كان اللحن قد هزّ مشاعر الأوائل في العصر الإسلامي فخفّوا سراعا إلى وضع النحو حفاظا على تأدية العربية سليمة خالية من اللحون، فإنّ خلَفهم من الأمويين اقتفوا أثرهم في المحافظة على العربية صحيحة سليمة خالية من الأخطاء، وقد شنّعوا على مرتكبي اللحن، وحاربوا اللحن نفسه، وفي المقابل فقد أخذوا بيد كل من يرفع من قدر العربية، وأجزلوا له الأعطيات، وأثنوا على الشعراء والخطباء والفصحاء، وأجازوهم بسنيّ الجوائز والهبات، بل بلغ بهم تقديسهم للعربية أن عفوا عمن أهريق دمه من الأعداء لقاء كلمة فصيحة قالها، أو لفتة بليغة وقف عليها، وآية ذلك ما ساقه أبو حاتم عن الأصمعي قال: سمعت مولى لآل عمر ابن الخطاب يقول: أحضر عبد الملك رجلا يرى رأي الخوارج، فأمر بقتله، فقال: ألستَ القائل:

ومنّا سُويدٌ والبَطِيْنُ وقَعْنَبٌ ومنّا أميرُ المؤمنينَ شبيبُ

فقال الرجل: إنّما قلتُ: ومنّا أميرَ المؤمنين شبيبُ (بفتح كلمة أمير بدلا من ضمّها)؛ على تقدير النّداء وليس الابتداء، فأمر بتخلية سبيله، فحقن بالفتحة دمه، ودرأ عنها القتل(الدينوري، 1971، جـ1، ص171).

فضلا عما قام به عبد الملك بن مروان من تعريبٍ دواوين الشام من الرومية إلى العربية وقيام الحجاج – وإليه على العراق – بتعريب الدواوين من الفارسية إلى العربية كانتصار للعربية على اللغات الأخرى، فأضحت العربية إلى جانب أنها لغة الدين والأدب لغة السياسة والدولة والدواوين، وعمد كذلك إلى ضرب النقود بالعربية (السيوطي، 2004،ص218).

ومما يدلنا على إكبار اللحن والتشنيع على مرتكبه وزيادة الرقابة اللغوية عصرئذ ما يطالعنا في بعض الكتب من حصرٍ لأسماء من لم يكن يلحن في ذلك الزمان، أو من كثُر لحنه منهم، ومن كان يرتضخ لكنة غير عربية، وإن دلّنا حصر من لم يلحنوا على كثرة وقوع اللحن من غيرهم إلا أنه يظهر لنا من ناحية أخرى أهمية التنبيه إلى هذه الظاهرة، لذلك فقد عدّوا من اللحانين خالد بن عبد الله القسري، وخالد بن صفوان الذي كان يدخل على بلال بن أبي بردة يحدّثه فيلحن، فلمّا كثُر ذلك على بلال قال له: أتحدّثني حديث الخلفاء وتلحن لحن السّقّاءات؟ قال التوزي: فكان خالد بعد ذلك يأتي المسجد ويتعلم الإعراب، وقد عدّوا الوليد بن عبد الملك من اللحانين، وذكروا أن الحجاج كان يلحن أحيانا، وعبيد الله بن زياد(الوسيط، 1918،ص88).

ونظرا إلى أن اللحن أضحى مثلبة تؤخذ على مرتكبها، وعارًا يتناقله الرواة فلا يكاد يُمحى، وشبهة لا تكاد تزول، فقد تشدد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأمويون في الفصاحة، وسعوا جاهدين إلى المحافظة على السليقة اللغوي التي تميز بين العربي والعجمي، وبلغ ببعضهم الأمر إلى تحامي التزاوج من الأعجميات، وبالغوا في تربية أبنائهم على إلف الملكة العربية؛ فكانوا يرسلونهم إلى البادية ليرتاضوا على الفصاحة والبلاغة، وينشؤوا نشأة الأعراب الفصحاء، ومنهم من كان يُحضر المؤدبين والمعلمين من أفصح الناس وأعلمهم إلى بيته ليخرّجوهم في الإعراب واللّسَنِ، فلا غرابة بعد ذلك من أن يخرج منهم الخطباء المصَاقِعُ أمثال معاوية ويزيد وعبد الملك ومعاوية بن يزيد ومروان وسليمان ويزيد بن الوليد وعمر بن عبد العزيز، هذا ما كان يفعله خلفاء بني أمية وأمراؤهم اقتداء بمعاوية بن أبي سفيان في تربية ابنه يزيد(الوسيط، 1918، ص88).

وفي زمن معاوية بلغ أمر اللحن مبلغا كبيرا من التشنيع على اللاحن من قِبل الخليفة وجُلّاسِه، وآية ذلك ما رواه الأصمعي عن عيسى بن عمر إذ قال:" قال معاوية للناس: كيف ابن زياد فيكم؟(يقصد عبيد الله بن زياد(30–67هـ) قالوا: ظريف على أنه يلحن، قال: فذاك أظرف له، وقد ذهب معاوية إلى اللحن الذي هو الفطنة، وذهبوا هم إلى اللحن الذي هو الخطأ"(الأنباري، دت، ص226).

ومعلومٌ ما بين الفعلين من التداخل في المعنى مع ما بينهما من اختلاف في الضبط؛ فالفعل (لَحَنَ يَلْحَنُ فهو لاحِنٌ) إذا أخطأ وهذا مراد القوم، و(لَحِنَ يَلْحَنُ لَحِنٌ) إذا أصاب وفطن، وهذا مراد معاوية، ومعاوية من الفطنة والذكاء اللغوي ما يجعلنا نربأ به عن عدم التفريق بين المعنيين، بيد أنه ربما قصد ذلك من قبيل التورية فترك المعنى القريب المقصود وذهب إلى البعيد رغبة منه في صرفهم عن هذا العيب لئلا يثبته في نفوس القوم فصرف الكلام عن وجهه، ودليل معرفة معاوية لحن ابن زياد أنّ زيادا قد أوفد ابنه عُبيد الله إلى معاوية، فكتب إليه معاوية " إنّ ابنك كما وصفت ولكن قوّم من لسانه "(الصلابي،2008،جـ1،ص239).

وقد ذكر الجاحظ أنه كان في عبيد الله لكنةٌ بسبب نشوئه في الأساورة مع أمه مرجانة، فكان ينطق العربية غير فصيحة، فكان ينطق الهاء بدلا من الحاء، والكاف بدلا من القاف، وهو الذي قال:" است الأرض"، فنشأة عبيد الله في بيئة البصرة التي كانت تعجّ بالفرس، وعيشه بكنف والدته غير العربية كل ذلك مجتمعا أفسد عليه فصاحته، بيد أنه وعلى الرغم من محاولة معاوية وأد لحن عبيد الله وستره إلا أن القوم ليس بغُفْلٍ عنه، فقد أخذ الشعراء يتندّرون بلحن عبيد الله ويتفكهون به، فقد روى الجاحظ أنه أمر الجند يوماً فقال:" افتحوا سيوفكم" يريد سلّوا سيوفكم، وهذا ما دفع أحد الشعراء وهو يزيد بن مفرّغ إلى هجائه بقوله:

ويومَ فتحتَ سيفك من بعيدٍ أضعتَ، وكلُّ أمرك للضّياعِ

وقد تكلّم الخطباء في حضرة معاوية فأحسنوا، فقال: والله لأرمينّهم بالخطيب الأشدق، قم يا يزيد فتكلّم.

وأمر معاوية زيادا بإصلاح ما فسد من لسان عبيد الله، فقد عُرف عن زياد بن أبيه الفصاحة والبيان، حتى روى الجاحظ عن الشعبي أنه قال:" ما سمعتُ متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببتُ أن يسكت خوفا من أن يسيء إلا زيادا، فإنّه كلما أكثر كان أجود كلاما "(الجاحظ،1998،جـ2،ص210).

وقد بلغ بهم أمرُ استقباحِ اللحن أنّ ضياع الإعرابِ كان أشدَّ عندهم من ضياع المال؛ فلما ارتفع إلى زياد بن أبيه رجل وأخوه في ميراث، فقال الرجل:" إنّ أبونا لما مات فإنّ أخينا وثب على مال أبانا فأكله، فأفأف زياد وقال: والذي أضعت من لسانك أضرُّ عليك مما أضعت من مالك "(الجاحظ،1998،جـ2،ص210).

ولعلنا لا نطمئنّ كثيرا إلى هذه الرواية التي تبدو عليها أمارات الصنعة بادية واضحة، ونردّها إلى بعض محاولات التعليم التي تعمد إلى نثر الأخطاء في النصوص بغية الوقوف عليها وتصويبها، فجملة الأخطاء الواردة في النص السابق كلها من الأسماء الستة التي ترفع بالواو، وتنصب بالألف، وتجر بالياء بعد استيفائها شروط عمل الأسماء الستة، وتوظيفها هنا يسهل على المتعلّم التقاطها، ومعرفة سبب انزياحها عن الصواب.

وإذا ما عُجنا إلى الدولة المروانية فإننا سنجد اللحن من أقبح الهجنة؛ لأن العرب كانوا عصرئذ على حميتهم الأولى، وكانت جماهيرهم تحضر إلى مجالس الخلفاء والأمراء وتُنادى كل طائفة منهم باسم قبيلتها (الرافعي، 1911، جـ1، ص206).

لذلك أخذ بنو مروان على عاتقهم إلزام أبنائهم البادية لينشّئوهم هناك على تقويم اللسان وإخلاص المنطق، لذا فقد كان عبد الملك بن مروان يحذر أبناءه دائما من اللحن، فإن اللحن في منطق الشريف أقبح من آثار الجدري في الوجه، وأقبح من التفتيق في ثوبٍ نفيسٍ. وقد روي أن عبد الملك بن مروان لم يكن يستعمل حديثا ملحونا حتى في المزاح؛ فقد استأذن عليه رجلٌ من علية أهل الشام وبين يديه قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: يا غلام، غطّها– وإنما أمر بتغطيتها حرمة لهذا الزائر– فلما دخل الرجل تكلم فلحن، فقال عبد الملك: يا غلام، اكشف عنها الغطاء، ليس للاحنٍ حُرمة، وقد كان يقدّر الدقائق اللغوية أيّما تقديرٍ، وآية ذلك ما كان بينه وبين الشاعر الخارجي المنهال في بيته (ومنّا أميرُ المؤمنين شبيب) الذي غيره إلى (ومنّا أميرَ المؤمنين شبيب) فنال

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بهذا الذكاء اللغوي استحسان عبد الملك الذي أطلق سراحه (يوهان، 1980،ص37).

وعلى الرغم من الحرص اللغوي الشديد الذي كان يصدر منه عبد الملك بن مروان –الذي ردّ على من سأله عن إسراع الشيب إلى رأسه بقوله: لقد شيبني صعود المنابر وتوقّع اللحن – إلا أنه اعترف صراحة أنه أهمل تأديب ابنه الوليد (حكم 86–96)، وإرساله إلى البادية، لذلك فقد كثُرت روايات اللحن التي رويت عنه، على نقيض أخويه سليمان ومسلمة اللذين تأدّبا أدبا رفيعا. وقد وجد من يعيّره بلحن ابنه الوليد، فكان في هم دائم لما كان عليه ابنه الوليد من لحن، وروي عنه قوله:" أضرّ بالوليد حبنا له، فلم نوجهه إلى البادية". وفي خبر أورده السيوطي عن مجلس روح بن زنباع مع عبد الملك بن مروان تبيينٌ واضحٌ لقلق عبد الملك من لحن الوليد، وتصويره لما راوده من تفكير بصرف الولاية عنه لهذا السبب، فقد قال السيوطي في تاريخ الخلفاء:" قال روح بن زنباع: دخلت يوما على عبد الملك وهو مهموم، فقال: فكرت فيمن أوليه أمر العرب فلم أجده، فقلتُ: أين أنت من الوليد؟ قال: إنّه لا يحسن النحو، فسمع بذلك الوليد فقام من ساعته وجمع أصحاب النحو وجلس بصحبتهم في بيته ستة أشهر ثم خرج وهو أجهل مما كان، فقال عبد الملك: أما أنه قد أعذر"(السيوطي،2004،ص223).

وقد كان الحجّاجُ بن يوسف الثقفي آية في الفصاحة والبلاغة وقوة الحجّة، وذكر الأصمعيُّ أنّ:" أربعة لم يلحنوا في جدّ ولا هزل: الشعبي، وعبد الملك، والحجّاج، وابن القرّيّة، والحجاج أفصحهم"(يوهان، 1980، ص37).

ويبدو أن الحجاج كان يحمل همّ اللغة، الأمر الذي دفعه إلى أن يقيم وزنا لأن يعبّر الناس في محيطه تعبيرا صحيحا، وهذا ما حدا بكثير بن كثير البصري الذي أراد الحجاج أن يكرهه على عمل يتولّاه أن يتخلص منه بأن أساء إلى أذن الحجاج بلحن في اللغة.

وهذا ما دفع خصوم الحجاج إلى إحكام الرقابة اللغوية عليه، والتصيّد له عن خطأ يكون عونا لهم على سياسته وإضعاف شوكته والتشكيك في قدرته، ولشعوره الدائم بالرقابة اللغوية التي تُفرض عليه فقد أجاءه التخوّفُ من اللحن إلى سؤال يحيى بن يعمر: أتسمعني ألحن؟ قال: حرفا، قال: وأين؟ قال: في القرآن، قال: ذلك أشنع، فما هو؟ قال: تقول:" قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" (سورة التوبة: آية، 24). فقرأ كلمة (أحبَّ) بالرفع بدل النّصب، كأنه لما طال عليه خبر كان نسي ما بدأ به، فقال الحجاج: لا جرم، لا تسمعني ألحن أبدا، قال يونس: فألحقه بخراسان وعليها يزيد بن المهلب"(الجمحي، 1997، جـ1، ص13).

وعلى ما أوتي الحجاج من بلاغة وفصاحة إلا أنّه لم يسلم من اللحن، فقد زعم بعضهم أن الحجاج قال للشعبي:" كم عطاءك في السنة؟ فقال الشعبي: ألفين. قال: ويحك، كم عطاؤك؟ قال: ألفان. قال: وكيف لحنت أولاً؟ قال: لحن الأمير فلحنت، فلما أعرب الأمير أعربت، ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه فأكون كالمقرّع له والمستطيل عليه بفضل القول"(الإسكندري، 1919،ص103).

فربما أوجب المقام إلى تقاطع العاميّة بالفصحى فتحدث الحجاج باللهجة العامية فظُنّ أنه قد سقط في شرك اللحن، وهذا ما يقتضيه المقام أحيانا؛ إذ اللغة تستجيب لتحوّلات أفراد الجماعة اللغوية، ومحمولاتهم الثقافية، ومقاصدهم، واحتياجاتهم التعبيرية والإبلاغية والتواصلية، بما يتواءم وسياق الحال، وخير ما يجسد هذا التقاطع ويفسره ويعلله، ما رواه قطرب قال: دخل الفراء على الرشيد، فتكلم بكلام لحن فيه مرّات، فقال جعفر بن يحيى البرمكي: إنه قد لحن يا أمير المؤمنين، فقال الفراء: يا أمير المؤمنين، إنّ طباع البدو الإعراب، وطباع الحضر اللحن، فإذا تحفظت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت، فاستحسن ذلك الرشيد".(ابن خلكان،1977،جـ6،ص177).

وأصدق ما يمثل استنكار اللحن واستكراهه وسطوته على مرتكبه في زمن الدولة الأموية ما روي عن عمر بن عبد العزيز من قوله:" إنّ الرجل ليكلّمني في الحاجة يستوجبها فيلحن فأردّه عنها، وكأنّي أقضم حبّ الرمّان الحامض، لبغضي استماع اللحن. ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب فأجيبه إليها التذاذا لما أسمع من كلامه"(الأنباري،1987،جـ1،ص244).

وربما دفع اللحن عمر بن عبد العزيز إلى لعب دور المعلم والمصحح والمنكر لخاصته ورعيته وولده؛ فقد ذكر الجاحظ أن بشْر بن مروان قال لغلام له– وعنده عمر –" ادعُ لي صالحا، فقال الغلام: يا صالحا. فقال له بشر: ألقِ منها ألفْ، فقال له عمر: وأنت زد في ألفك ألفا". فقد حرص على أداء لفظة (ألف) معربة حتى عند التوقف عليها(الجاحظ، 1998،جـ2،ص211).

ومما يشي باستثقال اللحن وكراهة وقوعه ونفور ذوي الرّياسات منه ما جاء ذكره في البيان والتبيين أنّه كان عند عمر بن عبد العزيز رجلان، فجعلا يلحنان، فقال الحاجب: قوما، فقد " أوذيتما" أمير المؤمنين، فقال عمر: أنت آذى لي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

منهما"(الجاحظ،1998،جـ2،ص211).

ولعلّ الوافد إلى الخليفة أو الوالي أو الأمير أو القائد كان يعرف شغفهم باللغة، وحبّهم لإقامتها خالية من اللحون، لذا تراه يستعين بقضاء حوائجه بتخيّر لغته وضبطها وإحكامها والاستعداد قبيل الدخول عليهم.

ونرى بأن ميزان الثقافة كان مختلفا؛ فربّما تساوى الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب والذي لا يقيم الشعر مع من يلحن في كلامه، فاللحن هو الميزان الذي يُقاس به علم الرجل وثقافته وعمقه المعرفي، وهو من يرفع مكانة الرجل عند الوالي أو يخفضها، وبناء عليه يتم اختيار أسلوب الخطاب من باب مخاطبة الناس على قدر عقولهم. وربما كان اللحن في المنطوق لا يُغتفر لصاحبه رغم انصراف الذهن أحيانا عن الإعراب إلى المعنى، وأما اللحن في المكتوب والشعر فقد كان قبيحا جدا؛ لأنه تثبيت على صاحبه بجهل قواعد اللغة، وأشدّ وقعا في النفس خصوصا إذا كان في مكاتبة الخلفاء والولاة، ودليل لا يمكن دحضه إلا بحجة دامغة كتأويل وجه إعرابي آخر للمسألة.

وكلّما تقدّمنا في الزمن ازدادت رقعة اللحن وازداد معها الوعي بالمشكلة، الأمر الذي أحوج إلى البحث عن طرق إصلاح جديدة تنتقل من الإصلاح الفردي الذي يتمّ بالمشافهة والتلقين والحث على تعلّم الإعراب إلى مرحلة التدوين، لذا فقد ظهرت مرحلة الإصلاح الكتابية في نهاية العصر الإسلامي وبداية الأموي، وقد كانت باكورتها محاولة أبي الأسود الدؤلي(69هـ). وقد أحصى الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه (لحن العامة والتطور اللغوي) ما يقرب من خمسين كتابا في اللحن بين موجود ومفقود، وقد استدرك عليه الدكتور عبد الفتاح سليم في كتابه (اللحن في اللغة مظاهره ومقاييسه) بذكر ستة عشر كتابا في اللحن من الكتب المعاصرة ممن أخذ مادته من كتب القدماء أو المتأخرين وزاد عليها.

حتى إن الوعي بمشكلة اللحن لم يعد قصرا على ذوي الرياسات من الخلفاء والأمراء والقضاء والقادة ومن عايشهم وعاصرهم من اللغويين والنحويين والشعراء ممن كان يعظّم أمر العربية ويشنّع على مرتكب اللحن، ويدعو إلى تعلم الإعراب، بل امتدّ هذا الإحساس إلى مرتكبي اللحن أنفسهم؛ فأخذوا يحتالون لأنفسهم لكيلا يسقطوا في المحظور الذي من شأنه أن يحقّر من شأنهم، لذا تراهم يتخيّرون من الكلام أسهله على اللسان وأبعده عن الإعراب، وقد أخذوا يسكّنون أواخر الكلم فرارا من اللحن، فقد ذكر الجاحظ أن مهديّ بن هُليل كان يقول:" حدثنا هشامْ، مجزومة؛ ثم يقول: ابنْ ويجزمه، ثم يقول: حسّانْ ويجزمه؛ لأنّه حين لم يكن نحويا رأى السلامة في الوقف"(الجاحظ، 1998،جـ2،ص221).

الخاتمةُ

إنّ الوعي بأهميّة اللغة في بناء المجتمع والدّولة والحفاظ على الهُويّة كان هاجسا قارّا في أذهان ذوي الرّياسات عصرئذ، ودون هذا الوعي على مستوى الصفوة وعند طبقات المجتمع لا يمكن تنفيذ خطة لغوية تساهم في نهضة عامة لبناء دولة حديثة عل أسس متكاملة الأركان، وتحقق الانتماء اللغوي الوطني، وترسّخ قيم الهُويّة والثّبوت في زمن التحوّل. لذا فإنّ إظهارَ الرّقابة اللغويّة التي فرضها ذوو الرّياساتِ – من لدن العصر الإسلاميّ وحتى العصر الأموي– بما تشكّل لديهم من الملكة اللسانيّة والثقافة اللغوية جعلتهم يبغضون اللحن، وينبّهون عليه، فكان لهم دورٌ كبير في المحافظة على أداء اللغة المنطوقة والمكتوبة خالية من اللّحون، فاستثمروا سلطتهم في الحفاظ على الهوية اللغوية الأصيلة من الضياع والاندثار في خضمّ التّزاحم اللغوي بسبب الاختلاط بالأمم الأخرى، وفقدان السليقة التي كان يمتح منها العربي، الأمر الذي دفعهم إلى مواجهة هذا المشكل اللغوي بتقعيد اللغة وتقنينها ليسهل على غير العربي معرفة نظامها وتعلّمها وأداؤها، بيد أن سيل اللحن قد طال نحيزة العربي فلم يعد الخطأ في اللغة قصراً على الأعاجم بل طال العرب الأقحاح، ولكنّنا نفرق بين لحنٍ منبعه الجهل التام باللغة وبين السهو ومراعاة المقامية، لذا فقد رام هذا البحثُ الوقوفَ على جملة من الحقائق والتوصيات، أظهرها:

- إنّ مصطلح اللحن قد مرّ بمراحل حتى استوى على معنى (الخطأ في اللغة)، وهذا الدّال اكتسب مدلوله السابق في بداية العصر الإسلامي، ثم أخذ بالتداول والذيوع في العصور التي تلت الإسلامي.
- إنّ التمايز الثقافي والتباين المعرفي في الثقافة اللغوية بين ذوي الرياسات انعكس على موقفهم من قضية الخطأ في العربية اللحنِ بين موقف يشي بالعمق والمعرفة اللغوية في دقائق اللغة وتفاصيلها، وبين مواقف يصدر من انتماء لغوي لهذه اللغة الشريفة وإن لم يكن مبنيّا على علم بدقائق اللغة وتفصيلاتها بقدر ما كان مبنيا على ملاحظات عامة فرضتها السليقة اللغوية ومعرفة مواطن الكلام.
- كان في زجرهم للّاحن على لحنه وإثابتهم للفصيح على فصاحته ما يدفع إلى تعلّم اللغة العربية، والحرص على سلامتها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خاصة في المكتوب بلْه المنطوق.

- ثمة عُرىً وثقى وتلازمٌ لا فكاك منه بين السلطة واللغة؛ يتمثل في قوة الموقف الرّسمي من الحفاظ على اللغة، فإنّ حرص السلطة على الأداء اللغوي السليم ينعكس إيجابا على اللغة وسلامتها وتحرّي الدقة فيها وضبطها، والعكس يوجب تأخّرها وضياعها.

- لم يكن وضع النحو العربي نتيجة حادثة فردية معينة، وإنّما تضافرت مجموعة من حوادث اللحن التي أخذت تقرع أسماع العرب الأقحاح، فخفّوا سراعا إلى نصرتها بوضع الضوابط اللغوية التي تقلل من اللحن وتعين على تعلّم العربية.

- كلما تقدّم الزّمن اتسعت رقعة اللحن، وزادت حوادثه، وقد صاحب قضية اللحن بعض التوجيهات النظرية من ذوي الرّياسات في بداية العصر الإسلامي حتى إذا صرنا إلى نهاية العصر الإسلامي رأينا معالجة اللحن أخذت منحى التطبيق العملي، وذلك بوضع أوّليات النحو زمن علي – رضي الله عنه – وإبي الأسود الدؤلي.

- اتخذ ذوو الرياسات في العصر الأموي موقفا صارما من قضية اللحن، وزادت الرقابة اللغوية، وتشددوا في الفصاحة، تشي بذلك ردود أفعالهم على اللحن، وتشنيعهم على مرتكبه، وقد أخذوا على عاتقهم إرسال أبنائهم إلى البادية، وتأديبهم، وترويتهم الشعر والنثر، وحثّهم على تعلّم العربية، لينشئوهم على اللسان الفصيح.

- كانت المقدرة على الضبط اللغوي هي الميزان الذي يُقاس به علم الرجل وثقافته وعمقه المعرفي، وكم من حاجة غير مستوجبة قد قُضيت بتخيّر صاحبها للغته! وكم من حاجة مستوجبة قد مُنعت لوقوع صاحبها في اللحن!

- إن في استحضار مواقف السّلف من الخطأ في اللغة، وحرصهم المستمر على أدائها سليمة خالية من الأخطاء ما يبعث في النفوس –اليوم– من رغبة في اقتفاء أثرهم، وعدم التصالح مع سماع اللحن وإن كثُر، بل التصدي له بالتصحيح والتصويب بما يوجب بعث الصّواب المهجور ووأد الخطأ الشائع، وكذلك فإنّ استحضار المرويات التي تحقّر وتضع من شأن اللاحن لم تكن بريئة في هذا البحث، بل ألجأنا إليها ما آل إليه حال اللغة العربية في زماننا، وما نطالعه من أخطاء من طبقة المثقفين والكتّاب والأكاديميين والإذاعيين، وما نراه من أخطاء مكتوبة في الصحف والمجلات والرسائل العلمية.

- كذلك في استحضار موقف ذوي الرياسات – قديما – ما يستنهض الهمم والعزائم عند ذوي الرياسات في الحاضر – كلٌّ في مكانه – لمحاكاة مواقف السّلف في الحرص على اللغة وفرض الرقابة عليها، خاصة في المؤسسات الرسمية، فالإصلاح اللغوي يظل مطلبا نظريا ما لم يكن هناك واقع حقيقي يدعمه أصحاب السلطة الذين يملكون التغيير الحقيقي والواقعي.

المصادر والمراجع

إبراهيم، أ.(1966م)، من أسرار اللغة، ط3، مصر – مكتبة الأنجلو المصرية.

ابن البيع، م.(1990م)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، بيروت – دار الكتب العلمية.

ابن جني، ع. (1950م) الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط2، دار الكتب المصرية.

ابن خلكان، ش.(1977م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ط1، بيروت – دار صادر.

ابن فارس، أ.(1979م))، مقاييس اللغة، دط، تحقيق عبد السلام هارون، مصر– دار الفكر.

ابن منظور، م.(1414هـ)، لسان العرب، ط3، بيروت – دار صادر.

الألباني، م. (1992م)، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيّء على الأمة، رقم الحديث، ط1، 1992، دار المعارف – الرياض، المملكة العربية السعودية.

أبو المكارم، ع.(2007م)، مدخل إلى تاريخ النحو العربي، ط1، القاهرة – دار غريب.

الإسكندري، أ. (1919م)، الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، ط1، مصر – مطبعة المعارف.

الأنباري، ع. (1985م)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ط3، الأردن – مكتبة المنار– الزرقاء.

الأنباري، ع.(1987م)، الأضداد، ط1، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت – المكتبة العصرية.

الأنباري، م.(دت)، الزاهر في معاني كلمات الناس، قرأه وعلق عليه يحيى مراد، بيروت – دار الكتب العلمية.

الترمذي، م.(1971م)، سنن الترمذي(الجامع الصحيح)، ضبطه خالد عبد الغني محفوظ، دط، دار الكتب العلمية– بيروت.

الجاحظ، ع.(1998م)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ط7، القاهرة – مكتبة الخانجي.

الجمحي، م.(1997م)، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، ط1، القاهرة – مطبعة المدني.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحاكم، ن.(2002م)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط2، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان
الحلواني، م.(1979م)، المفصّل في تاريخ النحو العربي قبل سيبويه، ط1، بيروت – مؤسسة الرسالة.
الحموي،ي. (1993م)، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، ط1، بيروت – دار الغرب الإسلامي.
الدينوري، ع.(1971م)، عيون الأخبار، شرح يوسف علي طويل، دط، بيروت – دار الكتب العلمية.
الرافعي، م. (1911م)، تارخ آداب العرب، ط1، القاهرة – مكتبة الإيمان.
الرشيد،ع.(2002)، الأفاكيه والنوادر: مدخل لتدريس فنون اللغة العربية، ط1، الرياض – دار طوابق للنشر.
الزبيدي، م.(1973م)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، مصر – دار المعارف.
الزبيدي، م.(2000م)، لحن العوام، تحقيق رمضان عبد التوّاب، ط2، القاهرة – مكتبة الخانجي.
سليم، ع.(2006 م)، موسوعة اللحن في اللغة، مظاهره ومقاييسه، ط 2، القاهرة – مكتبة الآداب.
سليم،ع. (1989م)، اللحن في اللغة: مظاهره ومقاييسه، ط1، مصر– دار المعارف.
السيوطي، ع. (2004م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، ط1، السعودية – مكتبة نزار مصطفى الباز.
السيوطي، ع. (1998م)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، ط1، بيروت– دار الكتب العلمية.
الصلابي، ع.(2008م)، الدولة الأموية: عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ط2، لبنان – دار المعرفة.
الصولي، م. (1994م)، أدب الكاتب، شرح أحمد حسن يسبح، ط1، بيروت – دار الكتب العلمية.
عبد التواب، ر.(1994م) فصول في فقه العربية، ط3، القاهرة – مكتبة الخانجي.
العجلوني، إ.(ت1162ه)، كشفُ الخفاء ومُزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسن النّاس، مكتبة القدس، 1351ه.
فندريس. (اللغة)، ترجمة: الدوحلي والقصاص، 1950.
القالي، إ. (1926م)، الأمالي، عني بوضعها وترتيبها محمد عبد الجواد الأصمعي، ط2، القاهرة – دار الكتب المصرية.
اللغوي،ع.(2009م)، مراتب النحويين، ط2، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، لبنان – المكتبة العصرية.
مختار، أ.(1971م)، البحث اللغوي عند العرب، ط1، مصر – دار المعارف.
المسدّي، عبد السلام، المعرفة اللغوية وأثرها في مقاييس الاختيار التربوي في مجالات لغوية، الكليات والوساطة، منشورات كلية الآداب، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 31، الرباط.
مطر، ع.(1966م)، لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، ط1، مصر– الدار القومية للطباعة والنشر.
الملخ، ح.(2002م)، التفكير العلمي في النحو العربي: الاستقراء– التحليل– التفسير، عمّان– الأردن– دار الشروق.
الموسى، نهاد.(2005)، اللغة العربية في مرآة الآخر، مثل من صورة العربية في اللسانيات الأمريكية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
الميداني، أ.(2004م)، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دط، بيروت – دار المعرفة.
الهروي، ع. (1998م)، ذم الكلام وأهله، تحقيق: عبد الرحمن عبد العزيز الشبل، ط1، المدينة المنورة – مكتبة العلوم والحكم.
يوهان، ف.(1980م)، العربية: دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، ط1، ترجمة: رمضان عبد التواب، مصر– مكتبة الخانجي.

المراجع باللغة الإنجليزية

Ennaji.M.Sadidi.F.(1994) Applications of Modern Linguistics, Casablanca, Afrique Orient.
Dubois. Etautres. (1973) Dictionnaire de Linuistique. Paris, La rousse.

REFERENCES

Abd Altawab, R. (1994). *Chapters in Arabic jurisprudence* (3rd Ed.). Cairo, Alkanji for Publishing & Distribution.

Abu al-Makarim, A. (2007). *Introduction to Arabic Syntax History*. Cairo, Dar Gharib for Printing, Publishing & Distribution

Al Anbari, A. (1985). *Nozhat Alalba Fi Tabaqat Alodaba*. Al-Samarrai, I (Ed). Jordan, Almanar for Publishing & Distribution.

Al anbari, A. (1987). *Al adhadh*. Ibrahim, M (Ed). Beirut, Alasriya Publishing & Distribution.

Al anbari, M. (1987). Alzaher Fi Maani Kalimat Alnas. Murad, Y (Ed). Beirut, Dar Al-Kotob Al- Ilmiyah.

Al basri, A (Al-Jahiz). (1998). *Bayān wa-al-tabyīn* (7th Ed.). Haroun, A (Ed). Cairo, Alkanji for Publishing & Distribution.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Al hakim, N. (2002). *Al-Mustadrak ala aṣ-Ṣaḥeeḥayn* (2nd Ed.). Ata, M (Ed). Beirut, Dar Al-Kotob Al- Ilmiyah.

Alajlouni, I. (1749). *The invisibility and Confusion Revealing The most Famous Speeches by Tongues*. Jerusalem, Alquds for Publishing & Distribution.

Al-Albani, M. (1992). *A series of weak and established hadiths* (Ed 1st). Riyadh, Dar Almaref.

Alhalawani, M. (1979). *Detailed in The History of Arabic Syntax Prior Sibawayh* (1st Ed.). Beirut, Alresalah publishers.

Al-Hamawi, Y. (1993). *The Dictionary of Scholar* (1st Ed.). Abbas, I (Ed). Beirut, Dar Al-Gharb Al-Islami.

Al-Harawee, A. (1998). *Criticizing speech and its Commonalty* (1st Ed.). Alshibl, A (Ed). Madina El Monawara, Oloom and Hikam Bookstore.

Al-Jamhi, M. (1997). *Classes of Great Poets* (1st Ed.). Shaker, M (Ed). Cairo, Almadani for Publishing & Distribution.

Al-Malakh, H. (2002). *Scientific Thinking in Arabic Syntax: induction, analysis, interpretation*. Amman, Dar Alshorouq.

Almasdi, A. (no date). Linguistic knowledge and its impact on the criteria of educational selection in language fields, colleges and mediation, of The Faculty of Arts' publications, series of seminars and debates, No. 31, Rabat.

Almousa, N. (2005). *The Arabic language in the mirror of the others, like the image of Arabic in American linguistics* (1st Ed.). Arab Est for Printing and Publishing.

Al-Nisapuri, M. (1990). *Al-Mustadrak ala aṣ-Ṣaḥeeḥayn* (1st Ed.). Ata, M (Ed). Beirut, Dar Al-Kotob Al- Ilmiyah.

Alqali, I. (1926). *Alamali* (2nd Ed.). Alasmai, M (Ed). Egyptian National Library and Archives.

Al-Rafe'ie, M. (1911). *Arab Literature History* (1st Ed.) Cairo, Dar Aleman.

Alrasheed, A. (2002). *Alafakeeh wa Alnawader: Introduction to teaching Arabic language arts* (1st Ed.). Riyadh, Dar Twaiq for Publishing & Distribution.

Al-Sallabi, A. (2008). *The Umayyad state: factors of prosperity and the consequences of the collapse* (2nd Ed.). Beirut, Dar Almarefah.

Al-Suli, M. (1994). *Adab Alkatib* (1st Ed.). Yasbuh, A (Ed). Beirut, Dar Al-Kotob Al- Ilmiyah.

Al-Suyuti, A. (1998). *Almuzhir in language sciences and types* (1st Ed.). Mansour, F (Ed). Beirut, Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah.

Al-Suyuti, A. (2004). *History of the caliphs* (1st Ed.). Aldemirdash, H (Ed). KSA, Nizar Mustafa Al-Baz for Publishing & Distribution.

Al-Tirmidhi, M. (1971). *Sonnan Al-Tirmidhi* (Aljamee Alsaheeh). Mahfouz, K (Ed). Beirut, Dar Al-Kotob Al- Ilmiyah.

Alughawi, A. (2009). *Grammarians Ranks* (2nd Ed.). Ibrahim, M (Ed). Beirut, Alasriya Publishing & Distribution.

Al-Zubaidi, M. (1973). *Grammarian and Linguists Classes* (2nd Ed.). Ibrahim, M (Ed). Cairo, Dar Almaaref.

Al-Zubaidi, M. (2000). *Lahen Alawam* (2nd Ed.). Altawab, R (Ed). Cairo, Alkanji for Publishing & Distribution.

Anis, I. (1966). *Secrets of Arabic Language* (3rd Ed.). Cairo, The Anglo Egyptian Bookshop.

Dinawari, A. (1971). Oyoon Alakhbar. Taweel, Y (Ed). Beirut, Dar Al-Kotob Al- Ilmiyah.

Ibn Faris, A. (1979). *Language Standards*. Haroun, A (Ed). Cairo, Dar El Fikr.

Ibn Jini, O. (1950). *The Characteristics* (2nd Ed.). Alnajar, A (Ed). Cairo, The Egyptian National Library and Archives.

Ibn Khallikan, A. (1977). *Wafayāt Al-Aʿyān Wa-Anbāʾ Abnāʾ Az-Zamān*. Abbas, E (Ed). Dar Sader, Beirut.

Ibn Manzur, M. (1993). *Lisan Al-Arab* (3rd Ed.). Dar Sader, Beirut.

Iskandarī, A. (1919). *Al-Wasit Fi Al-Adab Al-'Arabi Wa Tarikhihi* (1st Ed). Cairo, Dar Al Maarif.

Johan, F. (1980). Arabic: Study in language, dialects and methodologies (1st Ed.). (Abd Altawab. R, Trans). Cairo, Alkanji for Publishing & Distribution

Matter, A. (1966). *Commonalty Solecism in light of modern linguistic studies* (1st Ed.). Cairo, Dar Alqawmeyeh for Printing and Publishing.

Meydanı, A. (2004). *Mjm'a Al'amthal*. Abd Alhameed, M (Ed). Beirut, Dar Almarefah.

Mukhtar, A. (1971). *The Linguistic Research by Arabs* (1st Ed.). Cairo, Dar Almaaref.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Saleem, A. (1989). T*he Solecism in Arabic Language its aspects and measurements* (1st Ed.). Cairo, Dar Almaaref.

Saleem, A. (2006). *The Solecism in Arabic Encyclopedia its aspects and measurements* (2nd Ed.). Cairo, Aladab for Publishing & Distribution.

Vendryes, J. (1950). *The Language* (Alqasas & Aldohali, Trans).

The Solecism by People in Power in Islamic and Umayyad times A Sociolinguistic Study

Salem Khalil Al-Aqtash *

ABSTRACT

This research aims to clarify the ancestors' point of view in people in power conducting Solecism, particularly in Islamic and Umayyad eras, which threatens the validity of the Arabic language with the absence of language common sense. It is convinced that there is an intrinsic link between power and language, which lies in how multilingualism should be contained as a result of populations and languages intermingling and maintaining the authentic linguistic model representing linguistic identity. This could be achieved through investigating the linguistic traces that have been observed in books, translations, assemblies and news devoting to the language soundness and purification, studying and analyzing the linguistic issue observed to determine the scientific value learned from it, identifying ancestors' methodology against people in power in monitoring and jealousy of the Arabic language. Finally, establishing a static attitude rooted in mind, which could be a lifeline to the modern Arab nation being immersed in the Solecism because of languages intermingling, in the absence of a linguistic observer. Therefore, the progress lies in referring to the enriched resources and figures as an attempt to perceive the culture and the linguistic belonging related to linguistic observation to maintain written and spoken Arabic language sound and clear of Solecism and to trace ancestors by taking the linguistics error seriously and rejecting it in order to rectify the approach and eliminating errors..

Keywords: Solecism, People in power, linguistic correctness, Islamic era and Umayyad era.

* Department of Arabic Language and Islamic Studies, Al Ain University, UAE. Received on 18/12/2018 and Accepted for Publication on 24/12/2019.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Copyright of Dirasat: Human & Social Sciences is the property of University of Jordan and its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission. However, users may print, download, or email articles for individual use.

www.manaraa.com